Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

الانخراط في قضايا المجتمع والإسهام في إصلاحه في أدب السجن
شعر أبي العلاء المعريّ أنموذجا

Engaging in Community Issues and Contributing to Reforming It in Prison Literature
The Poetry of Abi Al-Ala Al-Maari as a Model

Essarraoui Abdessadeq
Faculty of Letters and Human Sciences, University of Sidi Mohamed Ben Abdellah, Morocco
essaraoui.abdessadek@gmail.com

ملخص

يحمل المثقف العضوي –بتعبير غرامشي– هما كبيرا تجاه المجتمع الذي ينتمي إليه؛ ذلك أنه يلتزم بتسخير ثقافته وأدبه الذي يكتبه لإثارة قضايا مجتمعه ومشاكله وهمومه، والانخراط في الارتقاء به والدعوة إلى صلاحه. لذلك تأتي هذه الدراسة لتقدم نموذجا لهذا المثقف الذي يعطي صورة أنموذجية ومثالية عن الإحساس بمسؤولية هذا الشخص تجاه مجتمعه، وضرورة الانخراط في إثارة قضاياه وما يجابهه من مشاكل في كل الأحوال التي يكون فيها هذا المثقف، حتى في حالة السجن والنفي، من خلال نموذج الشاعر والأديب أبو العلاء المعري. ذلك أنه كان علامة فارقة من بين أدباء وشعراء عصره، ونموذجا فاعلا من داخل المجتمع الذي ينتمي إليه رغم أنه ظل حبيس ظلمات العمى الذي أصابه منذ صغره، وظل سجينا من داخل قفص جدران بيته الذي عاش فيه إلى آخر عمره. ورغم كل ذلك فقد أسهم في نقد العادات والآفات التي عششت في مجتمعه، وانخرط في الدعوة إلى صلاحه وإصلاحه. بناء على منهج استقصائي، تبحث هذه الدراسة في دوافع سجن المعري وفي أهمّ القضايا الاجتماعية التي أثارها في شعره من داخل سجنه الخاص.

الكلمات المفتاحية: أدب السجن– المعري– إصلاح المجتمع.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

Abstract

The organic intellectual, in the expression of Gramsci, carries a great concern towards the society to which he belongs. This is because he is committed to harnessing his culture and literature that he writes to raise the issues of his society and its problems. Therefore, this study comes to adopt a model for this educator, which gives an ideal image of a sense of responsibility for this person towards his community, and the need to engage in his issues and the problems that he answers in all cases in which this educated is, even in the case of imprisonment and negation, through the form of Abu Al -Ala Al -Maari poetry. This was a milestone among the writers and poets of his time. He was an active model from within the society to which he belongs, even though he remained trapped in the darkness of the blindness that afflicted him from a young age, and remained a prisoner from inside the cage of the walls of his house in which he lived until his last age. Despite all this, he contributed to the criticism of the customs and pests that inhabited his society, and became involved in advocating its reform and reform Based on an investigative approach, this study examines the motives for Al-Maarri's imprisonment and the most important social issues that he raised in his poetry from his own prison.

Keywords: prison literature- Al-Maari- Reform of the Society.

Article History:

Received: *2/10*/2022 Accepted: *31/10*/2022 Published: *31/12*/2022

مقدمــة

يعد السجن مؤسسة تأديبية وإصلاحية أوجدها الإنسان بهدف عزل الأشخاص الذين يقترفون جرائم ويشكّلون خطرا على أمن المجتمع، أو إلى تقويم سلوكهم من أجل الانخراط في المجتمع من جديد والمشاركة فيه بصلاح وفعالية وإيجابية. وقد خلد التاريخ أسماء سجناء، ليسوا من فئة المجرمين والمنتهكين لحقوق الآخرين وحرياتهم، وإنما سجناء من فئة الفلاسفة والشعراء والأدباء بسبب «جرائم فكرية» اتهموا بها إثر ممارسته للإبداع والاختلاف والتفكير الحر. وقد تمخض عن الفترات التي قضاها أشخاص كثر من هذه الفئات إلى ولادة أدب فرض نفسه في مجال الأدب والنقد، اصطلح عليه في الأدبيات النقدية _الغربية والعربية_ بـ"أدب السجون"، وهو أدب يتمخض عن الفترة التي قضاها الأديب في سجنه، له رواده الذين بلغت آثارهم الأدبية شأوا عظيما وسط جمهور النقاد والقراء.

فقد ولد انتزاع الحريّة التي بها يحيا الإنسان لدى فئة عريضة من هؤلاء السجناء المثقفين –بعزلهم في سجون مغلقة– رغبة دائمة في التدوين والسرد والحكي، محاربة للملل الذي يقتل النفس وسط تبدد الزمن بشكل قاتل من داخل

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

زنازينهم، مما جعل من الكتابة أداة وسلاحا للتشبث بالأمل ومقاومة عنف العزلة، وأداة أيضا للفضح والبوح والتعبير عن الهموم والآلام الذاتية والجماعية، بل والإنسانية عموما في كثير من الأحيان.

ويعد أبو العلاء المعري (ت349هـ) واحدا من هؤلاء الأعلام الذين تمخض عن فترات سجنهم وعزلتهم أدبا خلده التاريخ واحتفى به الناس من مختلف الثقافات، وجعل منه أديبا متفردا من بين الأدباء والشعراء عبر تاريخ الثقافة العربية إلى اليوم. غير أن السجن المقصود هنا بالنسبة للمعري ليس ذلك السجن الذي يزج فيه المجرم أو المذنب من قبل حاكم أو خليفة أو ملك نتيجة جرم أو ذنب أو ظلم أو تعد، وإنما هو سجن حكم به على نفسه بناء على فكر وفلسفة وقناعة ارتضاها لنفسه، فلقب نفسه برهين المحبسين.

أهداف الدراسة

ينحصر موضوع هذه الدراسة البسيطة إذن في أدب السجن من خلال نموذج سجن الشاعر أبو العلاء المعري؛ حيث تنطلق من أدبه الشعري الذي تمخض عن الفترة الأخيرة من حياته، والتي قضاها كلها من داخل بيته/سجنه، لتكشف عن أوجه الاهتمام الذي أولاه هذا الشاعر الضرير لقضايا وهموم مجتمعه المعري الصغير، والمجتمع العربي الكبير، وكيف جعل منه أداة ووسيلة لانتقاد ما يعج به مجتمعه من مشاكل وآفات اجتماعية، والعمل على الدعوة إلى صلاحه. وذلك من خلال التعريف بمفهوم السجن في فلسفة المعري، ودواعي عزلته وسجنه، ثم الخصائص التي تميز بها الأدب الشعري المعري في هذه المرحلة، وتجليات الإصلاح الذي عمل عليه ودعا إليه في شعره.

إشكالية الدراسة

سعيا وراء الوصول إلى الأهداف التي تغيتها الدراسة، طرحت جملة من الأسئلة الإشكالية تمت صياغتها على النحو الآتي: **ما الدوافع التي دفعت بالمعريّ إلى سجن نفسه، وما علاقة ذلك بمجتمعه؟ ما خصائص هذا الأدب الذي تمخض وولد من داخل سجنه الذي زج فيه نفسه؟ ثم كيف انخرط المعري في قضايا مجتمعه وكيف أسهم في الدعوة إلى صلاحه من داخل سجنه؟**

ما يميز الدراسة عن غيرها

تطرح هذه الدراسة موضوع أدب السجن، لكن من زاوية تقليدية؛ حيث تركز على فترة زمنية تعود إلى القرن الرابع الهجري، وهو عصر لم يُشع فيه بعد مفهوم أدب السجن. لكننا نرى أن أبا العلاء المعري، أديبا قد أنتج أدبا شعريا ونثريا من داخل سجنه بمحبسه بمعرة النعمان مسقط ررأسه، يمكننا اعتباره أدب سجن، لكنه سجن مفهوم آخر ذو بعد فلسفي. وتركز على أدبه الشعري بدرجة أولى من خلال ديوان "اللزوميات"؛ نظرا لأهمية الشعر في المرحلة التي عاش فيها أولا، ثم لكون شعر اللزوميات تمخض عن افترة التي قضاها المعري في سجنه الأبدي إلى حين وفاته.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

1- مفهوم السجن عند المعري

لا ينحصر السجن عند أبي العلاء المعري في معناه السطحي على أنه مؤسسة تأديبية وردعية تحد من ممارسة الحرية، وإنما يتجاوز هذا المعنى السطحي إلى معنى فلسفي أعمق أسفر عنه قانونه الفلسفي الذي قال عنه طه حسين "إنه قد حكّمه في شعره ونثره وكل حياته"[1]. فالمعري لم يدخل السجن نتيجة جرم أو ذنب أو بأمر من خليفة أو ملك أو حاكم، وإنما دخله من تلقاء نفسه. ولم يكن هذا السجن زنزانة أو من وراء قضبان، وإنما كان منزله الذي حبس به بنفسه بمعرة النعمان مسقط رأسه، ولزمه إلى أن انقضى أجله.

فقد انتهى التفكير بالمعري إلى أن السبيل إلى الخلاص هو الدخول في سجن وليس الخروج منه عكس المألوف، مدركا أن الابتعاد عن الناس والمجتمع بكل مكوناته هو الخطوة الأولى نحو الاسهام في إصلاحه مما فسد منه من ظلم الحاكم وطغيانهم، ومن جهل الجاهلين ونفاق المنافقين من أفراده. لهذا حبس نفسه بعد أن وصل درجة الوعي القصوى في آخر حياته، فعكف يكتب من داخل سجنه أدبا وشعرا وفلسفة عن قضايا مجتمعه وهموم إنسان عصره منتقدا وموجها ومرشدا وداعيا إلى الصلاح والتغيير.

ويأخذ السجن عنده معاني ثلاثة حسب فلسفته الخاصة، وهي ما نجده يعبر عنها في قوله:

أَرَانِي في ثلاثةٍ من سُجُونِي ... فلاَ تسألْ عنِ الخبرِ النَّبِيثِ
فَقْدِي لناظري ولُزُوم بَيْتِي ... وكَونُ النَّفس في الجسمِ الخَبِيثِ[2]

فهو هنا لا يرى لنفسه سجنا واحدا ماديا ملموسا هو بيته ومحبسه، وإنما هو سجن من درجة ثالثة حيث أول سجن دخله هو ظلمة العمى التي أصابته منذ صباه، والثاني هو جسده حيث سجن روحه التي لا تبرحه كما تخيله بعض الشعراء والفلاسفة قبله. ونحن هنا يهمنا السجن المادي الملموس الذي هو بيته الذي أقام فيه زهاء خمسين سنة لم يبرحه، وسجن فيه نفسه ولزمه "وطلب من أهل المعرّة ألا يخرجوه منه حتى حين يَغيرُ الرّوم عن المدينة."[3]

يمثل بيت المعري إذا سجنا حقيقيا لا يختلف عن زنزانة وسط سجن، في ظروف لا تقل صعوبة عما يعيشه السجين الحقيقي؛ حيث "اضطر إلى العيش على العدس والزيت والتين والدبس، ولا يتجاوز ذلك إلى غيره، واتخذ من

[1] – طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، مطبعة المعارف – مصر، ط1 1986، ص: 56

[2] – أبو العلاء المعري: ديوان اللزوميات، مكتبة الخانجي – القاهرة، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، د.ت، ج1، ص: 188.

[3] – طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – مصر، 2012م ص: 23.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

اللباس أخشنه وأقساه، ومن الفراش أغلظه وأجفاه: اللبد في الشتاء والحصير في الصيف، ولا يتخذ في الشتاء دفئا ولا يضع ماء ساخنا."[1]

2- دواعي العزلة ودوافع السجن

ذهب الكثير ممن عرضوا لحياة المعري أنه اعتزل الناس وحبس نفسه نتيجة أثر الفلسفة عليه باطلاعه الواسع على كتبها. غير أن هذا الزّعم يدحضه المعرّي نفسه من خلال إشارات كثيرة في آثاره. ففكرة العزلة وسجن نفسه فكرة كانت كدور في خلده قبل سفره إلى بغداد في رحلته المشهورة[2]، لكنه لم يجهر بها قبل رحلته تلك. يقول في رسالته إلى أهل المعرة: "فوجدتُ أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة(...) وهو أمر أسري عليه بليل (...) ليس بنتيج الساعة، ولا ربيب الشهر والسنة، ولكن غذيُّ الحقب المتقادمة، وسليل الفكر الطويل"[3]. فهو هنا يُطلع أفراد مجتمع المعرة أنه عازم على الدخول في عزلته التي كان يتهيأ لها ويفكر فيها منذ زمن طويل، تكبر معه كل يوم كبر في السن ونضج في الفكر وغالى في مخالطة الناس. ونجده أيضا يتحدث عنها في كثير من شعره الذي يدعو فيه إلى مذهب الوحدة والعزلة ويسعى لتبنيه.

لكن ثمة عوامل حملته على تطبيق هذا المذهب والعمل به، بحبس نفسه واعتزال الناس والدنيا من حوله. وأول هذه العوامل؛ ذهب بصره منذ الثالثة من عمره، مما حرمه من رؤية دنيا الناس كيف يفعلون في أفراحهم وأتراحهم، وفي مجالسهم ونواديهم، "فكان يخشى أن يخطئ ما ألف الناس فيكون محط سخرية واستهزاء، أو مكان للعفو والمغفرة أو الشفقة والرثاء له"[4]، وقد عرف بشدة حيائه وعزة نفسه. والعامل الثاني فهو فقده والده في شبابه مما زاد من فقره وسوء معاملة الناس له. أما العامل الثالث فهو مقته للناس بعد طول معاشرة، فلم يعد يطيق العيش بينهم لما يسري بينهم من بؤس وسوء معاملة، ثم موقفه من بعض خصالهم وأفعالهم وأفكارهم ومعتقداتهم التي أدرك أنها لا تتفق مع مذهبه وفكره، وذلك خلال إقامته في بغداد دار العلم والأدب وملتقى العرب والعجم ومعهد العلماء. أما العامل الأخير فهو الذي حسم به المعرّي قرار عزلته بشكل نهائي بعد عزمه وتهيئه وهو موت أمه الذي أثر في نفسه وزاد من

---

[1] – نفسه، ص: 56.

[2] – تحدّث كتب التاريخ والتراجم عن مجموعة من الرّحلات العلمية التي قام بها المعريّ. غير أن أشهر هذه الرحلات رحلته العلمية إلى بغداد، حيث شكّلت مدة هذه الرحلة وهي سنة وبضعة أشهر عاملا أساسيا في تكوين شخصية أبي العلاء معنويا وفكريا نظرا لمكانة عاصمة الخلافة بغداد عهدئذٍ، وتكمن أهمية هذه الرّحلة في أنه "**كانت بصريح عبارته وشهادة سلوكه وأقوال مؤرخيه: الحد الفاصل بين بين شطرين من حياته إنسانا وأديبا، شطرين مختلفين شتانا ما بينهما**"، كما تقول بنت الشاطئ.

3 – ينظر رسالة المعري إلى أهل المعرة، ضمن كتاب "الجامع في تاريخ أبي العلاء" لسليم الجندي، ج1/ 283-284.

[4] – تجديد ذكرى أبي العلاء، ص: 124.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

مرارته وزهده في الدنيا، فترك بغداد بسببه، فعاد إلى مسقط رأسه حيث حكم على نفسه بالسجن مدة خمسين عاما[1].

يقول في حزنه على مغادرة بغداد:

أثَارِنِي عـــنـــكـــم أمـــرانِ: والـــدةٌ ... لـــَـــــمْ ألْقَهَا وثـــراءٌ عـــَادَ مَسْفُوتَـــا

أَحْيَـاهُمَـا اللهُ عَصْـــرَ البَيْنِ ثمَّ قَضَـــى ... قـبـل الإيَّابِ إلَى الـذَّخِـرَيـنِ أنْ مُـوتَا[2]

3- خصائص أدب السجن العلائي

سجل طه حسين ملاحظة مهمة وقف عندها بتفصيل طويل؛ وهي أن الكتابة الشعرية وحتى النثرية عند المعري قد عرفت طورين اثنين: طور أول ما قبل رحلته إلى حلب وبغداد، وطور ثاني بعد عودته من رحلته ودخوله في عزلته الطويلة. وخلص من ذلك إلى أن الكتابة عند أبي العلاء عرفت تطورا جذريا في الطور الثاني من حيث الأسلوب ومن حيث الموضوعات[3].

فكل الآثار الأدبية التي جادت بها قريحة هذا الرجل الضرير، يمكن تقسيمها إلى قسم حسب هذين الطورين من حياته: آثار تنتمي إلى مرحلة الشـــباب التي كان فيها المعري حرا طليقا، وآثار أخرى ترتبط بالمرحلة الثانية بعد عودته من رحلته إلى بغداد ودخوله في عزلته الدائمة، التي سميناها سجنا.

بالنسبة لإنتاجه الشعري في مرحلة الأولى، يمثله ديوانه "سقط الزند"، وقد جعل شعره "سقطا" لأنه أول ما يسـمح به طبعه في بواكير شـبابه، كما أن السـقط أول ما يخرج من الزند عند القدح به[4]. ويمثل المرحلة الثانية ديوانه "لزوم ما لا يلزم" الذي لزم فيه ما لم يلزمه الشعراء قبله في أساليب الكتابة الشعرية بإكثاره للغريب والخروج عن قواعد العروض والقافية وتجاوز قواعد اللغة والنحو[5]. أما أثاره النثرية، والتي ضـــاع كثير منها[6]، فمنها ما ينتمي إلى المرحلة الأولى كـ"ضوء السقط " و"زجر النابح" "وخادمة الرسائل" وغيرها، وما ينتمي إلى المرحلة الثانية وأهم آثار هذه المرحلة "رسالة الغفران"، التي خالف فيها نمط الكتابة الترسلية.

---

1 – نفسه، ص: 123.

2 – أبو العلاء المعري: شرح ديوان سقط الزّند، دار صادر– بيروت، 1376هـ/ 1957م، ص: 175.

3 – ينظر: طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 229– 234.

4 – حسن جعفر خريباني: أبو العلاء المعري – رهين المحبسين، سلسلة أعلام الأدباء والشعراء، دار الكتب العلمية – بيروت، ج11، ص: 59.

5 – طه حسشين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص: 164.

6 – سَرد أحمد تيمور كل آثار المعري ما وصلن منها وما فُقد في كتابه " أبو العلاء المعري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة– مصر، ط1، 2012، ص:65.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

والذي يهمنا نحن هنا، هو أدبه الشعري المتمخض عن مرحلة السجن والعزلة، والذي يتجسد في ديون "لزوم لا يلزم".

4- تفاعل المعري مع قضايا المجتمع من داخل سجنه

كتب لأبي العلاء أن يطأ الدنيا خلال القرن الرابع الهجري عصر الاضطراب والتمزق والفوضى؛ إذ تجمع كل الكتب التي أرخت للأدب العربي على أن القرن الرابع الهجري بدءا من العصر العباسي الأول، هو عصر اضطراب سياسي واجتماعي واقتصادي بامتياز. فإذا عدنا إلى مصادر تاريخ العرب وتاريخ الأدب العربي، وجدناها قد أسهبت في الحديث عن الاضطرابات والصراعات السياسية المشحونة في هذا العصر نتيجة الحروب المتعاقبة بسبب الصراع بين الملوك من أجل الحكم والسلطة على امتداد قرون من الزمن. فقد شهد المعري خلال السنوات التي عاشها حكم ثلاث دول[1] لم يهدأ الصراع بينها على مدى عقود من حكمها.

ولأن الشاعر ابن بيئته كما تقر بذلك الأدبيات القديمة؛ يتأثر بها وبالأحداث التي تدور في محيطها، فقد كان لهذا الاضطراب السيّاسي تأثير على ثقافة أبي العلاء المعري باعتباره شاعر بيئته ولسان أهل عشيرته، لمعايشته الأحداث السياسية التي عرفتها بلاد الشام والعراق ومصر، ومعرة النعمان مهد ولادته بوجه خاص. وأثر هذا الوضع السياسي المضطرب أيضا على كل مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فشاع في المجتمع الكثير من ضروب الفساد الاجتماعي من انتشار الظلم وضياع الدين وانتهاك المحرمات وظهور الفتن ببروز مجموعة من المذاهب، وغيرها من الظواهر الاجتماعية.

والمعري كان متفاعلا مع كل الأحداث التي شهدتها بلدته معرّة النعمان التي تأثرت بهذا الاضطراب أيضا، وكان حضوره فيها قويا وواعيا ومسؤولا، ينم عن اهتمام الرجل بقضايا مجتمعه المعري وانشغاله به؛ فقد حضر جملة من الأحداث التاريخية الحاسمة وقتذاك في مسقط رأسه؛ منها التخريب الذي لحق المعرّة سنه 393 هـ من قبل لؤلؤ السيف الجراحي، وشهد أيضا الانتفاضة المشهور للمرأة المعرية بالمسجد سنة 417 هـ في عهد ابن مرداس، ومحاصرته لحلب ومعرة النعمان واعتقال بعض رجالها منهم أخ أبي العلاء، وغيرها من الأحداث الأخرى. وهذا ما دفع المعري إلى الخروج إلى ابن مرداس من أجل هدنة الأوضاع بالمعرة كأول آلية من آليات الدّفاع عن أمن موطنه واستقراره[2].

---

[1] – "اتصلت حياة أبي العلاء اتصالا خاصا بثلاث من الدول وهي: دولة الديلم ببغداد (...)، الدولة الحمدانية بحلب، (...) ثم دولة الفاطميين التي أسقطت الحمدانيين (...)"، **ينظر: "تجديد ذكرى أبي العلاء" لطه حسين، دار المعارف مصر، ط 9(د.ت)، ص: 47.**

2 – ينظر كتاب محمد سليم الجندي: "الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره"، مرجع سابق، ص101 وما بعدها.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

وخارج معرة النعمان، كان المعري متتبعا لكل ما يحدث في بلاد الشـــام ومصـــر وكل الأقطار العربية من اضـطرابات سـياسـية التي أدت إلى اندلا ع مجموعة من الثورات والنوائب والفتن، كفتنة بغداد بين أهل السـنة وأهل الشـيعة سـنة 441 هـ وغيرها من الانشـقاقات والثورات التي اندلعت وقتئذ ولم تخمد نيرانها لردح من الزمن. فهو "لم يكن في برج عاج معزولا عن قضـايا عصره الدينية والسـياسية"[1]، "ولم يكن يعيش بمنأى عن الحياة السـياسـية ولا عن التيارات العقائدية في عصره."[2]

إن هذا الحضور الوازن لأبي العلاء في المشهد السياسي في مجتمع المعرة، وتعاطيه الفعلي مع قضاياه وتفاعله مع الأحداث السـياسـية في الأقطار من حوله، ينم عن هم يحمله الرجل تجاه مجتمعه كونه فرد من أفراده وعنصـر من عناصـره. وحتى بعد انعزاله عن مجتمعه بسـجن نفسـه بعد عودته من رحلته إلى بغداد، فقد انشـغل من داخل سـجنه بشـؤونه انشـغالا كبيرا وكأنه ما يزال بين أفراده، "فكان انعزاله للمجتمع وابتعاده عنه وسـيلة من وسـائل العمل على إصـلاحه وأداة من أدوات معالجة مشـاكله"[3]، حيث عكف يكتب ويناقش كل القضـايا الإنسـانية والاجتماعية التي يعج بها المجتمع من حوله إسهاما في إصلاحه وضمانا استقراره. فأين يتجلى ذلك في شعره؟

5- قضايا المجتمع ومعالجتها في شعر المعري من داخل سجنه

أشـرنا إلى أن المرحلة الثانية من حياة المعري التي بدأت بسـجن نفسـه بعد عودته من رحلته المشـهورة من بغداد قد أسفرت عن ولادة مجموعة من القصائد الشعرية تضمّنها ديوانه "لزوم ما لا يلزم." وهو ديوان يجسد الانخراط الفعلي للمعري من داخل سـجنه في التعاطي مع مجموعة من القضـايا التي كان يعج بها المجتمع المعري خاصـة والعربي عموما. فقد أسـعفت أبا العلاء قريحته الشـعرية للتعبير عن القضـايا الاجتماعية الناتجة عن الأوضـاع السـياسـية التي عاشها وعايشها في خضم مجتمعه، كون الشّعر في حياة الإنسان العربي القديم واحد من أهم وأرقى الوسائل التي يدافع بها عن شرفه وشرف عشيرته ومجتمعه من حوله، ويعبر من خلالها عن آماله وآلامه، مما يدفعنا إلى تتبع هذه القضـايا الاجتماعية التي تضمّنها هذا الديوان وسعى من خلالها إلى إصلاح المجتمع.

فنتيجة الاضطراب والتمزق السياسي الذي عرفه القرن الرابع الهجري، برزت في المجتمع المعرّي والعربي وقتئذ مجموعة من الظواهر الاجتماعية. ومن ذلك؛ انتشـار الفقر والظلم والجهل، وسـاد بين الناس الكذب والنفاق والغدر والحسـد، وشـاعت النميمة والبغض والفتن والموبقات، وغابت القيم الاجتماعية النبيلة فسـاءت الحياة الاجتماعية

1 – لويس عوض: على هامش الغفران، دار الهلال، ضمن سلسلة كتاب الهلال، العدد 181، أبريل 1966، ص: 87.
2 – نفسه، ص: 89.
3 – محمد إبراهيم الحصايري: محاولة في فهم أبي العلاء المعري، منطق الفكر العلائي من خلال ديوان اللزوميات، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة–تونس، ط2011م، ص 18.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

وفسدت فسادا. كل هذه الظواهر، انشغل بها المعري من داخل سجنه، وظل ينتقدها ويعالجها من خلال شعره ويدعو إلى تجنبها إسهاما منه في إصلاح مجتمعه والعلاقات بين أفراده الذين حبس نفسه عنهم.

فأول ما قام به المعري هو انتقاده الأنظمة الحاكمة كونها السبب الأول من وراء هذه الأزمات وهذا الفساد الاجتماعي الذي ساد البلاد العربية، فيقول في هذا الشأن:

مُـلَّ المـقـامُ فَـكَـمْ أُعـاشِـــرُ أمـةً ... أُمِرَتْ بِغيرِ صَـــلاَحِهَـا أُمَرَاؤُهَـــــا
ظلموا الرّعيـة، واســتجـازوا كيـدهـا ... وَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وهُمْ أَجْراؤُهـــَـــا[1]

فهو هنا يعبر عن امتعاضـــه من الواقع الذي آل إليه المجتمع نتيجة ظلم الحكام والأمراء الذين يتوجّب عليهم خدمة الرعية والسهر على راحتها ومصالحها، بسبب سوء تدبيرهم الذي يعبر عنه في قوله:

يسُـــوسُـــونَ الأمـورَ بـغـيرِ عَـقْـلٍ ... فينفـذُ أمرهم ويقـال سَـــاســـهْ
فـأفٍّ مـــن الحـيـــاةِ وأفٍّ مـــنّي ... ومنْ زمنٍ رئاســـتـهُ خسَـــاسَـــهْ[2]

ويقول معبرا عن موقفه السلبي من سياسة الحكم التي أدت إلى سوء الأوضاع:

سَـــاسَ الأمورِ شـــيـاطِينُ مسَـــلَّطـةٌ ... في كـلّ مَصـــرٍ من الوالين شَـــيْطَـانُ[3]

ثم عمد بعد ذلك إلى مناقشـة مجموعة من الظواهر والأزمات التي أفسـدت المجتمع وزادت من سـوء حالته. ومن أهم هذه الظواهر:

أ- الفقر:

يقض مضجع المعري كثرة الفقر المنتشر في مجتمعه بسبب البخل وقلة العطاء فيقول:

إنَّ الـغِـنَى كَـثِـيرٌ حِـينَ تَـطْـلُـبُـهُ ... والـفَـقْـرُ في عُـنْصُـــرِ الـتّركـيـبِ مَـوْجُـودُ

[1] – عن سليم الجندي، الجامع في أخبار أبي العلاء، ج1604/3.
[2] – أبو العلاء المعري: ديوان اللزوميات، ج2، ص، 31.
[3] – نفسه، ج502/1.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

والشُّـــحّ لـيس غـريبًـا عـنـدَ أَنْفسِـــنَـا بـلِ الـغَـريـبُ، وإن لم يُـرحَـمْ، الجُـودُ[1]

فهو يرجع سـبب فقر الناس إلى بخل الأغنياء الذين لا يمتثلون لقيم التصـدق والعطاء والتعاون ومسـاعدة المحتاج. ويوصي الناس بالجود والعطاء قدر استطاعتهم.

ب- الكذب والخداع:

يرى المعري أن الكذب والخداع قد انتشـر بين الناس حتى أنهم ينحازون إلى الكاذب وينأون عن الصـادق، نلمس ذلك في قوله:

أطـاعُـوا ذَا الخِـدَاعِ وصـــدَّقُـوهُ وكمْ نَصَـحَ النّصِـيحُ فكذّبـــوهُ[2]

فأصبح الكاذب محبوبا عندهم والصادق ممقوت:

والنّـاس شـــتى فيعطى المقـت صـــادقهم عـن الأمـور، ويحـبى الـكـاذب المِـلِـقُ
وربمـا عَـذَل الإنسَـــانُ مُـهْـجـتُـهُ فِي الصّـــدق حين يرى جَـدَّ الـذي يَلِقُ[3]

لهذا فإنه يحذر من تصديق الكاذبين، فيقول:

ولا تصـــدّقـوهـم إذا حـدّثـوا فـإنّي أعـدهـم يـكـذبـون[4]

ج- النفـاق:

ينتقد المعري النفاق الاجتماعي في قوله:

يـلـقـاك بالمـاء الـنـمـير الـفـتى وفي ضـــمـير الـنـفـس نار تـقـدُ

[1] – نفسه، ج1/ 329.
[2] – لزوم ما لا يلزم، المعري، ج601/2.
[3] – نفسه، ج182/2.
[4] – نفسه، ج2/ 586.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

يعطيك لفظا ليّنًا مسَّه ومثل حدّ السّيف ما يعتقد[1]

فالنفاق قد انتشر بين الناس، بل إنه مس حتى الأخلاء والأصحاب المقربين فيقول:

وما عند خلّك غير النّفاق وما خلته ناسيّا، فاذّكر[2]

ولأثر النفاق السلبية على العلاقات الاجتماعية، والتي قد تسبب في تكريس البغض والتفرقة بين الأفراد المشكلة للحمة المجتمع، فإن المعري يحذر منه ويطلب التخلي عنه.

د- الغدر والمكر:

يصف المعري الناس بالذئاب والنمور لما فيهم من غدر ومكر، فيقول:

أَبَانُوا عَنْ قُبحِ مُنْكَرَاتٍ فَدَعْ مَا لاَ يَبِينُ بَيْنَ الأُمَورِ
وعَاشُوا بِالخِدَاعِ فَكُلّ قَوْمٍ تُعَاشِرُ مِنْ ذِئابٍ أو نُمُورِ[3]

ويعتبر الخداع من طباع الناس يختبئون من ورائه لبلوغ أهدافهم، فيخلقون الوفاء طلبا للمصالح والمطامع عن طريق الغدر. يقول:

الغَدْرُ فِينَا طِباعٌ لاَ تَرى أحدًا وفَاؤُهُ لَكَ خَيرٌ مِنْ تَوافِيهِ
أينَ الذِّي هُو صافٍ لاَ يُقَالُ له لَوْ أَنَّهُ كَانَ أوْ لاَ ولاَ كذَا فِيهِ؟[4]

وهو مرض لا تشفى منه النفوس كما يرى:

أَرَى مَرضًا بالنَّفسِ لَيْسَ بِزائِلٍ فَهلْ ربَاهَا مِمَّا تُكَابِدُ شَافِيهَا
وفِي كلِّ قَلبٍ غَدْرَةٌ مُسْكَنَةٌ فَلاَ تُخْدَعَنَّ عَنْ خُلَّةٍ بِتَوَافِيهَا[5]

[1] – نفسه، ج401/1.
[2] – لزوم ما لا يلزم، ج616/1.
[3] – نفسه، 558/1
[4] – نفسه، ج629/2.
[5] – نفسه، ج610/2.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

هـ- الحقد:

يرفض المعري الحقد ويذمه، لأنه الدافع إلى الكراهية وانقطاع الصلة بين الناس، فيقول:

فَوَيْحَهُم بَيْنَ مَا رَتَّبُوا ومَا حَفِضُوا فَهِيَ الخَدِيعَةُ والأُضْغَانُ والحَسَدُ[1]

وللحقود صفات يعرفُ به، من أجل تجنّبه، فيقول:

ولِلْحَقُودِ عَلاَمَاتٌ يَبِينُ بِهَا كما رأيت بشِدقِ الهَادر الزَّبَدَا[2]

فهو هنا يذم الحاملين لهذه الصفة، ويشخص لنا صفات الإنسان الذي تطبع هذه الصفة من أجل تجّنبه.

و- الغيبة والنميمة:

الغيبة والنميمة من الآفات الاجتماعية التي تشيع البغض والخصام بين الناس، وذيوع العداوة بين أفراد المجتمع، لذلك يعتبرها المعري من شر الأفعال على نحو قوله:

وتمضي بنا السَّاعاتُ مُضْمِرَةً لنا قَبِيحًا عن أن الوجوه وَسائِمُ

نَمَمْنَ بما يُخْفِيهِ حيٌّ ومَيِّتٌ وشرُّ أفْعَالِ الرِّجَالُ النَّمائِمُ[3]

فهذه الفئة المبغوضة من الناس، لا يسلم من أذاها المرء مهما تجنبهم، يتجلى ذلك في قوله:

ومنْ يَعِشْ بين النَّاسِ لمْ يخلُ من أذى بما قَالَ واشٍ أو تكلّم حَاسِدٍ[4]

ح- انتشار الخمر والموبقات:

يدعو المعري إلى تجنب الخمر والفواحش المنتشرة في المجتمع لأضرارها النفسية والاجتماعية على أفراده، فيقول محذرا منها:

[1] - لزوم ما لا يلزم، جج323/1
[2] - نسه، ج20/2.
[3] - نفسه، ج2/ 389.
[4] - نفسه، ج1/ 312.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

إيَّاكَ والخمرَ فهِيَ خالبَةٌ غَالبَةٌ خَابَ ذلك الغُلبُ
أسْأَمُ منْ نَاقةِ السَّوسِ علَى النَّـ ـــاسِ وإنْ قِيلَ عَنْهَا الطلبُ
أفضل ما تضمه كؤوسها ما ضمّته العساس والقلبُ[1]

لذلك فهو يتجنبها ولا يعقرها:

لا أشْرَبُ الرّاحَ ولَو ضمَّتْ ذهاب لُوْعَاتِي وأحزانِي
مُخَفِّفًا مِيزَانَ حُلمِي بِهَا كَأَنِّي مَا حقَّ مِيزانِي[2]

ط– الغشّ

يذم المعري آفة الغش التي لحقت كل مناحي الحياة؛ في البيع والشراء والتجارة للاحتيال على الناس والنصب عليهم. فيقول في هذه الآفة الشنيعة:

قَدْ أعْمَانَا الغِشُّ وأَزْرَى بِنَا في زمنٍ أَعوزَ فيهِ الخُصُوصِ
إنَّ نُصْحَ السُّلطَانِ فِي أمرِهِ رأيُ ذُوي النُّصحِ مثلُ الشّصُوصِ
وَكلُّ مَنْ فَوقَ الثَّرى خائِنٌ حتّى عَدُولَ المصْرِ منَ اللُّصُوصِ[3]

ويقول معبرا عن الانتشار الواسع للغش:

قَدْ كَثُرَ الغشُّ واستعانَتْ بِهِ الأشدّاءُ والإركَهْ
فَمَا تَرَى مِسكَةُ مَجالٍ إلاَّ وقَدْ مُزِجَتْ بِسكَهْ
وَلَمْ يجدْ سَائِلٌ عِلْمًا يُزِلْ بِالموضحاتِ شَكَهْ[4]

[1] – نفسه، ج1/ 609
[2] – نفسه، ج2/ 147.
[3] – نفسه، ج1/ 88.
[4] – نفسه، ج2 ص236. الإركه: الضعفاء، المسكة: واحده المسك: الطيب المعروف، السكة: العَمَلة.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no2.6
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

فهي معضلة حلت بالمجتمع وتفشت فيه، واعتبرت شيئا عاديا لا يشكل أدى خطر على بنيته، والعكس أنها شيء ينخر جسد المجتمع، ويتسرب إلى النفوس حتى يُبح طبعا وهو ما يحذر منه.

الخـــاتمة

إن المعري من خلال هذه المختارات من شعر اللزوميات، يصور لنا مظاهر الفساد السياسي والاجتماعي الذي ضرب أطنابه على ربوع مجتمعه؛ لذلك فقد عمل في مشروعه الإصلاحي لمجتمعه أولا باعتزاله كخطوة أولى، ثم عمل انتقاد مظاهر الفســاد وضــروب الجور المتفشــية فيه، ثم الدعوة إلى صــلاحه من خلال عرضــه لكل الظواهر الاجتماعية التي أفسدت المجتمع وشتتته. فبالإضافة إلى هذه الآفات التي عرضناها استنباطا من أشعاره، هناك آفات أخرى عالجها المعري في شعره بكل جرأة، لذا فقد كان نموذج المثقف الذي حمل همّا تجاه مجتمعه بالتعاطي مع قضاياه من أجل إظهارها والتعبير عنها، والعمل على معالجتها وهو من دخل سجنه.

وهكذا شكل المعري نموذجا للمواطن المثقف الذي انشغل رغم انعزاله عن مجتمعه على التعاطي مع قضاياه والدفاع عنها والإسهام في العمل على الدعوة إلى صلاحه بانتقاده للآفات الكبرى التي تنخر جسد المجتمع، والتي لا تخلو من كل مجتمع من المجتمعات إلى اليوم. كل ذلك وهو من داخل سجنه الذي حبس به نفسه وارتضاه لها.

References

Al-Hasairi Muhammad Ibrahim. (2011). An Attempt to Understand Abu Al-Ala Al-Maari, the logic of Al-Ala'i thought through the Diwan of Necessities. Dar Al Maaref for printing and publishing, Sousse-Tunisia.

Al-Jundi, Muhammad Salim. (1962). Whole in the news of Abu Ala. (1st ed.), Publications of the Arab Scientific Academy - Damascus.

Al-Maarri, Abu Al-Ala. (1961). The register of the necessity of what is not necessary. Dar Sader, Beirut – Lebanon.

Al-Maarri, Abu Al-Ala. (2008). The Message of Forgiveness, achieved by Aisha Abd al-Rahman bint al-Shati. (11th ed.) Dhakjar al-Arab, Dar al-Maarif, Cairo.

Awad Lewis. (1996). On the sidelines of forgiveness. Dar Al-Hilal within the Al-Hilal Book Series, Issue 181, April.

Hussein Taha. (1986). Renewing the memory of Abu Al-Ala. Al-Maaref Press (1st ed.), Egypt.

Hussein Taha. (2012). With Abu Al-Ala Al-Maari in his prison. Hendawy Publishing Corporation, Egypt.

Khraibani Hassan Jaafar. Abu Al-Ala Al-Maari - Raheen Al-Mahbeseen, Series of the Flags of Writers and Poets, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya - Beirut.

Sharara Abdel-Taif. (1990). Abu Al-Ala Al-Maari: Studies and Selections, Abdel Latif Sharara. (1st ed.), International Book Company, Beirut, Lebanon.

Taymour Ahmed. (2012). Abu Al-Ala Al-Maarri. Hindawi Foundation for Education and Culture (automated ed.), Egypt.